الفصل السادس عشر

فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استُحب للمريد أن يختم القرآنَ فى كلّ أسبوع خَتْمَتين؛ ختمةً بالنهار، وختمة بالليل. ويجعل ختمةَ النّهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما. ويختم ختمةَ الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما؛ ليستقبل بختمته أوّل النهار وأوّل الليل، فإنّ الملائكة تصلّى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلّى عليه إن كانت ختمته نهاراً حتى يُمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كُلية الليل و[كلية][1] النهار.

وفى الخبر: «لم يَفْقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث»[2].

وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر «أن يقرأ القرآنَ فى كلّ سبع»[3]. وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة.

وروينا عن يحيىٰ بن الحارث الدينارى، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طَسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وكذلك كان زيد بن ثابت وأُبَىّ [بن كعب][4] يختمان القرآن فى كل سبع.

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٧، وصحيحه رقم ١١٠٧.

(٣) من حديث فيه حوار مع النبى ﷺ، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٦، وصحيحه رقم ١١٠٦.

(٤) زيادة من (ك).

وروينا عن ابن مسعود: أنه سبّع القرآن فى سبع ليال، فكان يقرأ فى كل ليلة بسُبعه. إلا أنّ تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره؛ لأنّ الاعتبار لا يتبيّن به.

وجماعة يُذكر عنهم ختمُ القرآن فى كلّ يوم وليلة، وقد كره ختمَه فى أقلّ من ثلاثٍ طائفةٌ.

والتوسط من ذلك ما ذكرناه؛ وهو أن يختم فى كلّ ثلاثة أيام.

• ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضى الله عنهم:

[قال أبو طالب:][1] وإن قرأ القرآن أحزابًا، فى كلّ يومٍ وليلةٍ حزبًا، فحَسَنٌ، وهو سنّة، فذلك أشدّ لمواطأة القلب وأقْوم للتّرتيل[2]، وأدنى إلى الفَهْم.

وإن أحبّ قرأ فى ركعة[3] ثلثَ عُشر القرآن، أو نصف ذلك، يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين فى ركعة[4] أو ركعتين. فإن قرأ فى كل وِرْد حزبًا أو حزبين، أو دون ذلك، فحَسَن.

وأحزاب القرآن سبعة: فالحزب الأول: ثلاث سور، والحزب الثانى: خمس سور، والحزب الثالث: سبع سور، والرابع: تسع سور، والخامس: إحدى عشرة سورة، والسادس: ثلاث عشرة سورة، والمفصل: من «ق» [إلى آخر القرآن][5]. فهذه كانت أحزاب القرآن، وكذلك حزّبه الصحابةُ رضى الله عنهم أجمعين. وكانوا يقرؤونه كذلك. وفى ذلك خبر [ثابت] عن رسولِ الله ﷺ [فى قصة][6].

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «للترتيب»، وكذلك فى الإتحاف ٤/ ٤٧٥، وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «كل ركعة» وأثبت ما فى (ك).

(٤) فى (ط): «كل ركعة» وكذلك فى الإتحاف ٤/ ٤٧٥.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) زيادة من (ك)، والخبر الذى يقصده هو حديث أوس بن حذيفة، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٥، وضعيف أبى داود، رقم ٢٤٦، وذكر الزبيدى عدة روايات وتخريجات للحديث، ثم علّق على نقل الغزالى من القوت هذا الكلام. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

وكأنّه حُزِب على عدد الآيات[١]، إذ عددها ستة آلاف [آية] ومائتان وست وثلاثون آية.

وقد اعتبرتُ ذلكَ فى كلّ حزبٍ فرأيتُه يتقارب، وهذا قبل أن تُعمل الأخماس، والعواشر، والأجزاء، فما سوى هذا مُحْدَث. يقال: إنّ الحجاج جمع قرّاءَ البصرةِ والكوفة، منهم: عاصم الجَحْدَرِىُّ، ومطَر الورّاق، وشهاب بن شريفة، فأمرهم بذلك.

وقد كان الحسن وابنُ سيرين ينكران هذه الأخماس والعواشر والأجزاء. ورُوى عن الشعبى وإبراهيم [النّخعى] كراهية النُّقَط بالحُمرة، وأخذ الأجر على ذلك، وكانوا يقولون: جرِّدُوا القرآن.

وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير: كان القرآن مجرَّدًا فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء، وقالوا: لا بأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطًا كبارًا عند منتهى الآى، فقالوا: لا بأس به يُعرف به رأس الآى، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتيم والفواتح، وقالوا: لا بأس به؛ لأنها علامة تُعرف بها.

واعلم أنه لا يجد فَهْمَ القرآنِ الفهمَ الذى يكشف مُشَاهَدة [المخاطب] ويظهر من الملكوت القُدْرة[٢] عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال: ذو بدعة[٣]، أو مُصِرٌّ على ذَنب، أو عبدٌ فى قلبه كِبر، أو مقارفٌ[٤] لهوى قد استكَنَّ فى قلبه، أو محبٌّ للدنيا، أو عبدٌ غيرُ متحقّقٍ بالإيمان، أو ضعيفُ اليقينِ، ولا مَن هو واقف مع مقراه، ولا عبد مهتمٌّ بتتبع حروفه واختياره، ولا ناظر إلى قول مفسّر ساكن إلى علمه[٥] الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاضٍ بمذاهب أهلِ العربية واللغةِ فى باطنِ الخطابِ وسرّ المراد[٦].

(١) فى (ط): «وكأنه حزبه على عدد هذه الآى» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قدره» وأثبت ما فى (ك).
(٣) فى (ط): «أدنى بدعة».
(٤) فى (ط): «مقارب».
(٥) فى (ط): «عمله».
(٦) فى (ط): «وسر المرء» وهو خطأ.

وهؤلاء كلّهم محجوبون بعقولهم، مردودون إلى ما يقدَّر فى علومهم، موقوفون مع ما تقرّر فى قلوبهم[١]، مزيدهم على مقدارِ عُلومهم وغرائز عقولهم. وهؤلاء مُشركون بعقولهم وعلومهم عند الموحّدين، وهذا داخلٌ فى الشِّرْك الخفىّ، الذى [هو] أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء.

قال محمد بن على بن سنانة: إذا معقولُه وعلمُه عن عقلٍ غير كامل؛ لأنَّ العقل الكامل ما عقل عن الله عزّ وجلّ، وفهم حُكمَهُ وكلامَهُ، ويعقل به كلامه.

وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل: «العاقل مَنْ عقل عن الله سبحانه وتعالى أمْرَه ونهيه»[٢]. وفى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرَّاؤها»[٣]. فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى، والنظر إلى غيره، لا نفاقَ الشركِ والإنكارِ لقدرة الله عزّ وجلّ، فهو لا ينتقل عن التوحيد، ولكنّه لا ينتقل إلى مقام المزيد.

فإذا كان العبد ملقيًا السّمع بين يدى سَميعه، مُصْغيًا إلى سرِّ كلامه، شهيدَ القلبِ لمعانى صفات شهيده، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا لمعقوله ومعهودِ علمه، متبرئًا من حوله وقوته، مُعظِّمًا للمتكلم، واقفًا على حضوره، مفتقرًا إلى الفَهْمِ بحالٍ مستقيم، وقلبٍ سليم، وصفاءِ يقين، وقوةِ علمٍ وتمكين، سَمِع فَصْلَ الخطابِ، وشهد عِلْمَ غَيْبِ الجوابِ.

وأفضلُ القراءةِ الترتيلُ؛ لأنّه يجمع الأمرَ والنَّدبَ، وفيه التدبُّر والتذكُّر [والتفكُّر]. رُوى عن علىٍّ رضى الله عنه: لا خيرَ فى عبادةٍ لا فقْهَ فيها، ولا فى قراءة لا تَدبُّر فيها. وعن ابن عباس: لأن أقرأ البقرةَ وآل عمران أرتِّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ القرآن كلّه هَذْرَمَةً[٤]». ورُوى عنه أيضًا: لأنْ أقرأ إذا زُلْزِلَت، والقَارِعَة، أتدبّرهما أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ البقرةَ وآل عمران هَذْرمةً.

---

(١) فى (ط): «عقولهم».

(٢) لم أجده بلفظه، وذكر القرطبى فى تفسيره ٣٤٦/١٣ من حديث جابر: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه». وانظر: شرح السنة، للبغوى، ٥/ ١٩٤.

(٣) المسند ١٧٥/٢ و ١٥١/٤، ١٥٥ من حديث ابن عمر، وعقبة بن عامر.

(٤) الهذرمة: سرعة القراءة، بلا أحكام ولا تدبُّر.

وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة، فكان قيامُهما واحدًا، إلا أن أحدهما قرأ البقرة، والآخر قرأ القرآنَ كلَّه. فقال: هما فى الأجر سواء؛ لأنّ قيامَهُما كان واحدًا.

وأفضلُ التّرتيلِ والتدبُّر فى القرآن ما كان فى صلاةٍ. ويقال: إنّ التفكُّرَ فى الصّلاة أفضلُ منه فى غير الصلاة؛ لأنهما عملان.

وهذا هو التفكُّر فى معانى التدبُّر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد، والزجر والأمر تعظيمًا للمتوعِّد، وإجلالاً للآمرِ.

وسئل النبى ﷺ: «أى الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت»[1]. وروى فى خبر آخر: «مَنْ سجد لله عز وجلّ سجدة رفعه اللهُ عزّ وجلّ بها درجةً»[2]. وأنه قال لأبى فاطمة خادمه، وقد سأله مرافقته فى الجنة، فقال: «أعنِّى بكثرةِ السُّجود». وروينا عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال: إنّه كثرة السجود بالنّهار، وإنّه طولُ القيام بالليل.

ويقال: إن العبدَ يُحشر عند الموتِ من قَبْرِه على هيئتِه فى صلاته من السُّكونِ والطّمأنينة، وتكون راحتُه فى الموقفِ على قدر راحته وتنعّمه بالصّلاة. وروينا معنى هذا عن أبى هريرة.

وعَلى هذا المعنى تأويلُ قولِ رسول الله ﷺ لبلال: «أرحنا بالصّلاة»[3]، أى: روِّحنا بها ونَعِّمْنا بها، من الرَّوَح والرّاحة إليها. ويقال: أرحنا بالشىء، أى رَوِّحْنا به. وأرِحْنا منْهُ: أى أسقطه عنّا وخفّف عنّا منه. ولم يقل: أرحنا منها. كيف وقُرّةُ عينه فيها؟!

وقال بعضهم: إنّى لأفتتحُ السُّورةَ فيُوقفنى بعضُ ما أشهدُ فيها عن الفَراغِ منها، حتى يطلع الفجر، وما قضيتُ منها وَطَرِى.

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٥٦ من حديث جابر.

(٢) مسند أبى حنيفة، ص٣٦.

(٣) المسند ٤/ ٣٦، ٣٧١.

وقال سليمانُ بن أبى سليمان الدّارانى: إنه وعد ابنُ ثوبان أخًا له أن يفطر عنده، فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلَقِيَهُ أخوه من الغد، قال: وعدتنى أن تفطرَ عندى فأخلفتَ. فقال: لولا ميعادك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك. إنّى لما صلّيتُ العَتَمة، قلت أُوتر قبل أنْ أجيئك؛ لأنّى لا آمَن ما يحدث من الموت. فلما كنتُ فى الدعاء من الوتر رُفعت لى روضةٌ خضراء، فيها أنواع الزّهر من الجنة، فما زلتُ أنظر إليها حتى أصبحت.

وقال عزّ وجلّ: ﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قيل: القرآن قوّى إيمانَهم بعلم القرآن، فالقرآن رُوح الإيمان، وتقويتهم استعمالُهم به. وفى التفسير ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، قيل: بجدٍّ واجتهاد. ومثله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣، الأعراف: ١٧١]، قيل: بعملٍ به. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدَّث نفسك بشىء؟ فقال: أوَ شىء أحبُّ إلىَّ من القرآن أحدِّث نفسى به؟ وهذه صفةُ قوىٍّ مكين.

ويقال: إنّ فى القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيج، ورياضًا، وخانات. فالميمات: ميادين القرآن، والراءات: بساتين القرآن. والحامدات[1]: مقاصير [القرآن]، والمسبحات: عرائس القرآن، والحواميم: ديباج القرآن، والمفصّل: رياضه، والخانات: ما سوى ذلك. فإذا جال المريدُ فى الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزّه فى الرياض، وسكَن غُرفَ الخانات، اقتطعه وأوقفه ما يراه، وشغله الشاهد به عما سواه.

وروى عن النبى ﷺ «أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فردّدها عشرين مرة»[2] وكان له ﷺ فى كلِّ ردَّةٍ فَهمٌ، ومن كلٍّ كلمة علمٌ.

---

(١) فى (ط): «الحآآت» وأثبت ما فى (ك)، وانظر: الإتحاف ٤/ ٥٠٤.

(٢) قال العراقى فى المغنى، هامش الإحياء ١/ ٢٨٢: «رواه أبوّ ذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف». وانظر: الإتحاف ٤/ ٥٠٥.

فينبغى أن يكون قلبُ التّالى بوصفِ كلِّ كلمةٍ يتلوها مشاهداً لمعناها إلى ما يفتح اللهُ عز وجلّ له من المزيد عليها من مجاورتها، ومع ما يفهم بها من غيرها، ويشهدُ غيرها منها. فقد كان بعضهم يقول: كلُّ آيةٍ لا أتفهَّمَها، ولا يكون قلبى فيها، لم أعدَّ لها ثوابًا. وكان بعض السلف إذا قرأ السورة [أو آية][1]، ولم يكن قلبه فيها، أعادها ثانية، فإذا مرّ بتسبيحٍ وتكبيرٍ سبّح وكبّر، وإن مرّ بدعاءٍ واستغفار دعا واستغفر، وإن مرّ بمُخوَّف ومَرجوٍّ استعاذ وسأل. فذلك معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة:١٢١]. وكذلك كان رسول الله ﷺ فى تلاوته.

وعلى هذا المعنى ما روى فى الخبر: «مَن أراد أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أُنزل فلْيقرأه على قِراءةِ ابنِ أُمِّ عَبد»[2]. أى: على معنى تلاوته؛ لأنه كان يقرأ بقلبٍ شهيد، وسمعٍ عتيد، وبصرٍ حديد، فكان يتلو القرآنَ على معانى الكلام، وعلى شهادة وصف المتكلم، الوعيدُ منه بالتحزين، والوعدُ بالتشويق، والوعظُ بالتّخويف، والإنذار بالتّشديد، والتّبصير[3] بالتّرقيق، والتّبشير بالتّوفيق؛ لأنه كان عالمًا بصفاتِ المتكلم، واجدًا لذوقِ الكَلِم. فمثل هذا العبد أحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن، كما جاء فى الخبر: «أحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن مَن إذا قرأ رأيتَ أنّه يَخْشى الله»[4]. ومن هذا قيل: «إذا قرأتمُ القرآنَ فابْكُوا، وإن لم تبكوا فتَباكَوْا»[5]. ومثل هذا: «إن القرآن نزل بحُزن، فإذا قرأتُمُوه فتحازَنُوا». أى: إنّ القرآن لما فيه من التهديدِ والوعيد، والوثائق[6] والعهود، يوجب البكاءَ والحُزن، فإن لم تَحزنوا

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) صحيح ابن ماجه، رقم ١١٤، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) فى (ط): «والتفسير» وأثبت ما فى (ك).

(٤) صحيح الجامع الصغير، رقم ١٩٤، من حديث ابن عمر بلفظ: «أحسن الناس قراءة...» ومن حديث جابر فى سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة، والصحيح رقم ١١٠١.

(٥) فى ضعيف ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ٢٨١، ورقمه فى السنن ١٣٣٧، وانظر: الإتحاف ٤/٤٧٩.

(٦) فى (ك): «المواثيق».

وَجْدًا، ولم تبكوا يقينًا، فتباكوا وتحازنوا لَفْظًا، لأجل التصديقِ والإقرار به. فندبَهُم إلى التّحازن فى التلاوة، والتباكى؛ ليجتمع همُّ العبد فى المتلو، فيتدبر الكلامَ، عسى أن يكون قلبُه بمعناه، فيكون التباكى والتحزين سببًا لجمع همِّه وفراغ قلبه؛ لأنّ المتباكى الصادقَ مجتمعُ الهمِّ فيما يبكيه، والحزينَ حاضرُ القلبِ مجموعُ الفكرِ، ومشغولٌ عن سوى مبكيه[1].

من ذلك ما روينا عن ابن عباس: «إذا قرأتم سجدةَ ﴿سُبْحان﴾ فلا تعجلوا بالسُّجود حتى تبكوا، فإن لم تبكِ عينُ أحدكم فليَبْكِ قلبُه، فبكاءُ القلب حزنُه وخشيتُه». أى فإن لم تبكوا بكاء العلماء عن الفهم فَلْتَحزن قلوبكم على فقد البكاء، وليخشَ كيف لم يوجد فيكم وصفُ أهل العلم.

وقد روينا فى غرائب التفسير من معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾ قال: هى العين الكثيرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قال: هى العين القليلة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤] قال: هو بكاء القلب من غير دموع عين.

وقال ثابت البنانى: رأيتُ فى النوم كأنّى أقرأ على رسول الله ﷺ القرآن. فلما فرغت قال: هذه القراءة، فأين البكاء؟

وكان الحسن يقول: والله ما أصبح اليوم عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كَثُر حزنه وقلّ فرحُه، وكثُر بكاؤه وقل ضحكه، وكبر نَصَبُه وشغلُه وقلَّت راحتُه وبَطالتُه.

والنّاسُ فى التلاوة على ثلاث مقامات: أعلاهُم: مَن يَشهد أوصافَ المتكلمِ فى كلامه، ويعرف أخلاقَه بمعانى خطابِه، وهذا مقامُ العارفين من المقربين.

ومنهم: من يَشهد ربَّه تعالى يناجيه بألطافه، ويخاطبه بإنعامه وإحسانه، فمقامُ هذا الحياءُ والتعظيمُ، وحالُه الإصغاءُ والتفهيم. وهذا للمقربين من عموم المقربين[2].

(١) فى (ك): «والحزين حاضر القلب مجموع الهمّ فيما شغله عن سوى حبيبه».

(٢) فى (ط): «وحاله الإصغاء والفهم، وهذا للأبرار من أصحاب اليمين» وأثبت ما فى (ك).

ومنهم: من يرى أنه [هو الذى][(١)] يناجى ربّه عزّ وجلّ، فمقامه السؤال والتملّق، وحالُه الطّلب والتعلّق، وهذا للمعترفين والمريدين، وهم من خصوص أصحاب اليمين.

وينبغى للعبدِ أن يشهد فى التّلاوة أن مولاه يُخاطبه بالكلام؛ لأنه سبحانه متكلّم بكلام نفسه، وليس للعبد فى كلامه كلام، وإنّما جعل له حركةَ اللسانِ بوصفه، وتيسير الذكر بلسانه بحكم ربّه عزّ وجلّ حدًا للعبد ومكانًا له[(٢)]، كما كانت الشجرة وجهةً لموسى عليه السلام، وكلّمه الله عزّ وجلّ منها[(٣)].

ويقال: إنّ كلّ حرف من كلام الله عزّ وجلّ فى اللوحِ المحفوظ أعظمُ من جبل قاف، وإنّ الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يُقلّوه ما أطاقوه، حتى يأتى إسرافيل، وهو مَلَك اللوح المحفوظ، فيرفعه فيقلّه بإذن الله عزّ وجلّ ورحمته، إذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به[(٤)].

وقال جعفرُ بن محمد الصادق: واللهِ لقد تجلّى الله عزّ وجلّ لخلقه فى كلامه، ولكن لا يبصرون. وقال أيضًا، وقد سألوه عن شىءٍ لَحِقَه فى الصلاة حتى خرّ مغشيًا عليه، فلما سُرّىَ عنه قيل له فى ذلك، فقال: ما زلتُ أردّد الآيةَ على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته تعالى.

وكذلك الخصوص يرددون الآية بقُلوبهم على قُلوبهم، ويتحقّقون بها فى مشاهدتهم بمدَدٍ من شهيدِهم وسيّدهم، حتى يستغرقهم الفهم، فيغرقون فى بحر العلم[(٥)]. فإن قصرت مشاهدةُ التّالى عن هذا المقام، فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملّقه بمناجاته [وألطافه][(٦)]، فإنّ الله عزّ وجلّ إنّما خاطَبه بلسانِه، وكلّمه بحركته

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): ويسّر الذكر بلسانه لحكمة ربه، حدًا للعبد ومكانًا له».

(٣) فى (ك): «كما كانت الشجرة وجهة لموسى صلى الله عليه وسلم، كلّمه ربّه منها».

(٤) هذه الفقرة ليست فى (ك).

(٥) فى (ك): «حتى يستغرقهم الفهم، فيستغرقون فى حقيقة منها».

(٦) زيادة من (ك).

وصوته، ليفهم عنه بعِلْمه الذى جَعَله له، ويعقل عنه بفهمه الذى قَسمه[١] له، حكمةً منه ورحمةً، إذ لو تكلم الجبّار عزّ وجلّ بوصفه الذى يدركه سَمْعُه لما ثبت للكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، وسُبُحات أنواره، فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول، وستره بصنعِ قُدْرته عن القلوب، وأظهر للقلوبِ علومَ عقولِها، وأشهدَ للعقول عُرفَ معقولِها، بلطفه وحنانه ورحمته وإحسانه.

وبلغنا فى الأخبار السالفة[٢]: أنّ وليًا من أولياء الله عزّ وجلّ من الصديقين ابتعثه فى الفترة إلى مَلِك من الجَبابرة يدعوه إلى التوحيد، وإلى شريعة الأنبياء. فسأله الملك عن أشياء من معانى التوحيد، فجعل الصِّدِّيق يجيبه عنها بما يقرُب من فهمه، ويدركه عقلُه؛ مِن ضَرْب[٣] الأمثال بما يستعمله الناس بينهم، ويتعارفونه عندهم. إلى أن قال له الملكُ: أفرأيتَ ما يأتى به الأنبياءُ إذا ادّعيت أنه ليس بكلام النّاس ولا رأيهم، أمِن كلامِ الله هو؟

قال الحكيم: نعم. قال الملك: فكيف يُطِيق الناسُ حمله؟

قال الصّدّيق: إنّا رأينا الناس لما أرادوا أن يُفهموا بعضَ الدّواب والطيرَ ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، لم يجدوا الدّوابّ والطير تحمل كلامهم، فوضعوا لها من النقر والصّفير والزجر ما عرفوا أنها تطيق حمله. فكذلك الناس يعجزون أن يحملوا كلامَ الله بكنهه وكمال صفاته[٤]، فصاروا بما يتراجعون به بينهم من الأصوات التى يسمعون بها الحكمة[٥]، كصوت الزّجر والنقر الذى سمعت به الدّواب من الناس. ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الأصوات من أن يشرُف الكلامُ، فشرفت الأصوات لشرفها، وعظم

(١) فى (ط): «جعل له... قسم له»، وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذا الخبر لم يرد فى المخطوط، وقد أورده صاحب الإتحاف ٤/٥٠٢، والغزالى فى إحيائه ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١. ونص الزبيدى على لفظ القوت، وعلى نقله قابلت هذا الخبر.

(٣) فى (ط): «ضروب» وأثبت ما فى الإتحاف، لأنه أدق.

(٤) فى (ط): «ككنهه بكماله وصفته» وأثبت ما فى الإتحاف

(٥) فى (ط): «فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة» وأثبت ما فى (ك).

لتعظيمها[١]. فكان الصوتُ للحكمة جسداً ومسكنًا، والحكمة للصوت نفسًا وروحًا. فكما أن أجساد البشر تُكرَّم وتُعزُّ لمكان الروح التى فيها، فكذلك أصوات الكلام تُشرَّف وتُكرَّم للحكمة التى فيها. والكلامُ على المنزلة رفيعُ الدرجة، قاهرُ السُّلطان، نافذُ الحكم فى الحقّ والباطل. وهو القاضى العادل، والشاهد المرتضى؛ يأمر وينهى. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدّام كلام الحكمة، كما لا يستطيع الظلُّ أن يقوم قدّام[٢] شعاعِ الشّمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم، ويستدلون به على حوائجهم.

فالكلامُ كالملك المحجوبِ، الغائبِ وجهُهُ، الشاهدِ أمرُه، وكالشمس العزيزة الظاهرة، مكنون عنصرها[٣]، وكالنّجومِ الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقع على سرّها. فالكلامُ أعظمُ وأشرفُ من ذلك، هو مفتاح الخزائن النفيسة[٤]، وباب المنازل العالية، ومراقى الدّرجات الشّريفة، وشراب الحياة الذى مَنْ شرب منه لم يمُت، ودواءُ الأسقام التى مَنْ سقى منه لم يَسقم. إذا لبسه مَنْ لم يتسلّح به أبدى عورته، وإذا تسلح به غير أهله لم يخرج إلا منهم.

نقلتُ هذا نقلاً من كلام الصّدّيق الحكيم الذى خاطب به الملك، فاستجاب له بإذن الله عزّ وجلّ. فهذا وصف كلام الله عزّ وجلّ، الذى جعله اللهُ لنا آيةً وعبرة، ونعمةً علينا ورحمة.

فانظر إلى الحكيم كيف جعل عقولَ البشرِ فى فهمِ كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائمِ والطير بالنقر والصّفير إلى عقول البشر، وجعل النقر والصّفير والإفهام من الناس للأنعامِ والهوامِّ مثلاً لما أفهم اللهُ تعالى به الأنامَ من معانى كلامه الجليل، بما

(١) فى (ط): «أن شرف الكلام يشرفها وعظم بتعظيمها» وأثبت ما فى إحدى نسخ القوت التى نقل عنها الزبيدى ونص على ذلك، لأنه كان بين يديه عدة نسخ من القوت. ورواية الإتحاف والإحياء: «لشرفها وعظم لتعظيمها».

(٢) هكذا فى المطبوعة والإتحاف.

(٣) نص الإتحاف ٤/٥٠٣ على بعض نسخ القوت: «وعنصرها مكنون».

(٤) فى (ط): «النفسية» وأثبت ما فى الإتحاف.

ألهمهم فيه[١] من الكلام، ﴿إنّ ربِّى لَطيفٌ لمَا يَشَاءُ إنّه هُو العَليمُ الحَكيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. فهذه قدرةٌ لطيفةٌ من قدرته التى لا تتناهى، وحكمةٌ مُحكمةٌ من حِكَمِه التى لا تُضاهَى؛ إنّه حكيمٌ عليمٌ[٢].

ثم ليشهد العبدُ أنّه مقصودٌ بجميعِ القرآنِ من فاتحته إلى خاتمته، مرادٌ مَعْنىٌّ به، له ضربت الأمثال به[٣]، وفيه جميعُ ذكرِه وأوصافِه؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى لما تكلّم بهذا الكلامِ وخاطب به المؤمنين، كان هو واجدهم، وكان حاضرًا معهم، وقد سوّى اللهُ عزّ وجلّ بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم وبين النبى ﷺ بمعنًى من المعانى، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُم وَمَا أَنْزلَ عَلَيْكُم منَ الكتَابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُم به﴾ [البقرة: ٢٣١]، كما قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إليكُمْ كتَابًا فيه ذكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكذلك قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إليْكَ الذِّكْرَ لتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿كَذَلكَ يَضْرِبُ اللهُ للنَّاسِ أمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣] يعنى صفاتهم. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إلَيْكُم آيات مُبيِّنَات﴾ [النور: ٣٤]. كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزلْنا إلَيْكَ آيات بيِّنات﴾ [البقرة: ٩٩][٤]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إلَيْكَ واصبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]. ثم قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليْكُمْ منْ ربِّكُم﴾ [الأعراف: ٣]. وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

غير أنّه سبحانه عمَّ الجملة بالبصائر والبيان، وخصَّ بالهدى والرحمة أُولى التّقى والإيمان. فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هذا بَصَائِرُ للنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلمتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

---

(١) فى (ط): «بما ألهم به» وأثبت ما فى الإتحاف.

(٢) إلى هنا ينتهى السقط من المخطوط، وكذا النقل المتصل للزبيدى من نسخ القوت.

(٣) فى (ك): «مَعْنًى به، له ضربت أمثاله به».

(٤) أتم فى (ك) بعض الآيات.

فالموقنون هم المتّقون، والمهديّون هم المرحومون، وقد أُمرنا بطلب فهم القرآن، كما أُمرنا بتلاوته، فروى عن النبى ﷺ أنّه قال: «اقرؤوا القرآنَ والْتَمِسوا غَرائبه».

وقال ابنُ مسعود: مَن أراد علمَ الأوّلين والآخرين فَلْيُثَوِّرِ القرآن(١).

ومن حديث على رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «والذى بعثنى بالحق نبيًا لتفترقنّ أمّتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة، كلّها ضالّة مضلّة يدعون إلى النّار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عزّ وجلّ؛ فإنّ فيه نبأ ما كان قبلكم، ونبأ ما يأتى بعدكم، وحُكمَ ما بينكم. مَن خالَفَهُ من الجبابرةِ قصمه الله، ومَن ابتغى العلمَ من غيره أضلّه الله. وهو حبلُ الله المتين، ونورُه المبين، وشفاؤه النافع، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يَعْوَجّ فيُقام، ولا يزيغ فيستقيم(٢)، ولا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلُقه كثْرةُ الردّ. هو الذى سمعتهُ الجنُّ فلمّا قُضى ولّوْا إلى قَوْمهم منذرين، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾(٣) [الجن: ١ ـ ٢]. من قال به صدَق، ومن عَمِل به أُجر، ومن تَمسّك به هُدى إلى صراط مستقيم».

وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول الله ﷺ بالاختلاف والفُرقة بعده. قال: «فقلتُ: يا رسولَ الله، فما تأمرنى إن أدركتُ ذلك؟ فقال: تعلّم كتابَ الله عزّ وجلّ واعمل بما فيه، فهو المخرجُ من ذلك. قال: فأعدتُ عليه. فقال: تعلّم كتابَ الله عزّ وجلّ واعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال: فأعدتُ عليه. فقال: تعلّم كتابَ الله واعمل بما فيه، ففيه النجاةُ، ثلاثًا».

وعن على رضى الله عنه قال: «ما أسرّ إلىّ رسول الله ﷺ شيئًا كتمه الناسَ إلاّ

(١) معنى «فليثور القرآن»: «تثويرُ القرآن: قراءتُه ومفاتّشةُ العلماء به فى تفسير معانيه، وقيل: لينقِّر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته» عن لسان العرب (ثور)، وفيه الخبر، وفى الإتحاف: ٤/٥٠٩. والرواية فى (ك): «فليُثِر» ونص الإتحاف على هذه الرواية، وقال: «رواه الديلمى عن أنس بن مالك».

(٢) فى (ك): «فيقوم».

(٣) فى المطبوعة و (ك): «فقالوا يا قومنا» وهو خطأ ظاهر فى القرآن.

أن يؤتى الله عبدًا فهمًا فى كتابه». وعنه رضى الله عنه أنه قال: ومَن فَهِم فسَّر [جميع][١] جُمَل العلم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيرِه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قال: الفهم فى كتاب الله عزّ وجلّ.

وقال أحسن القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩] فرفع الفهمَ مقامًا فوق الحُكم والعلم، وأضافهُ إليه؛ للتخصيص، وجعله مقامًا عامًا فيهما.

فإذا فهم العبدُ الكلامَ، وعامل به المولى، تحقّق بما يقول، وكان من أصحابه[٢]، ولم يكن حاكيًا لقائله، مثل أن يتلو منه: ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:١٥]، ومثل أن يقول: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيكَ المَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، ومثل قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢]، فيكون[٣] هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكّل المنيب، وهو الصابر على الأذى؛ توكلاً[٤] على المولى، ولا يكون مخبرًا عن قائل قاله، فلا يجد حلاوةَ ذلك ولا ميرانَه [حتى يكون على وصفِ ما ذكرتُ][٥] وإذا كان هو كذلك وجد حلاوةَ التلاوة، وتحقق جزء[٦] الولاية.

وكذلك إذا تلا الآى المذمومَ أهلها، الممقوت فاعلها، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم:٢٩]، ومثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): «تحقق بما أقول وكان من أهله».

(٣) فى (ك): «بأن يكون».

(٤) فى (ط): «متوكل» وأثبت ما فى (ك)، لأنه أدق.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «بحسن».

﴿الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]. فما أقبحَ من يعيب[١] ذلك وهو من أهله، وما أعظمَ أن يذمَّ أهلَ ذلك وهو بوصفه! فهذا من حُجج القرآنِ عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوةَ المناجاة، ولا يسمع خطابَ المناجى؛ لأنّ وصفَه المذموم قد حجبه، وهواه المردى عن حقيقةِ الفَهم قد حرمَه، ولأنّ قسوةَ قلبِه [صدَّه][٢] عن الفهم، وصَرفَه وكذّبه فى حاله عن البيان وأخْرسه.

فإذا كانَ هو المتيقظ المقبل، [وبان][٣] هو التائب الصادق، سمعِ فصلَ الخطابِ، ونظر إلى الداعى وله استجاب.

وقد اشترط اللهُ عزّ وجلّ الإنابةَ للتبصرة[٤]، وحضورَ القلب للتذكرة، فقال عزّ وجلّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:٨]، وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد:١٩، ٢٠]. فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدّى الحدود من نقضِ الميثاق وقلّة الصدق. والإنابةُ: هى التوبةُ بالإقبالِ[٥] على الله عزّ وجلّ. والألباب: هى العقولُ الزاكية والقلوب الظاهرة.

وينبغى للتّالى الخائفِ النّاصح لنفسه وللخَلْقِ، السليمِ القلبِ، إذا تلا آى الوعد والوعيد[٦] والمدح ومحاسن الوصفِ ومقاماتِ المقربين، أن لا يشهد نفسَه هناك، ولا يراها مكانًا لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها، وينظر إلى الصدِّيقين منها سلامةً ونُصحًا. فإذا تلا الآى الممقوت أهلها، المتهدَّد عليها[٧]، المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوالِ الخاطئين، شهد نفسه هناك، وأنّه هو المخاطَبُ المقصودُ

(١) فى (ك): «أن يعيب».
(٢) ساقطة من (ط).
(٣) ساقطة من (ط) وفيها: «فهو التائب».
(٤) فى (ط): «للإنابة التبصرة» وأثبت ما فى (ك).
(٥) فى (ط): «والإقبال» وأثبت ما فى (ك).
(٦) فى (ط): «إذا تلا الآى الوعد».
(٧) فى (ك): «الممقوت فيها، المصر عليها».

بذلك، خوفًا منه وشفقًا. فبهذه المشاهدة يرجو للخلق[١] ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يُسلم قلبه للعباد ويَمقُت نفسه.

وروينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول: اللّهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى. قال: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله [تعالى]: ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإن قُلِب هذان المعنيان على عَبد حتى يشهد نفسه فى المَدْح والوصف، ويشهد غيرَه فى الذم والمقت، انقلب قلبُه عن وجهة الصادقين، وتنكَّب بقصده عن صراط الخائفين، فهلَك وأهْلك؛ لأنّ من شهد[٢] البعدَ فى القُرب لُطِفَ له بالخوف، ومن شهد القربَ فى البعدِ مُكِرَ به فى الأمن.

وقال بعض العلماء: كنتُ أقرأ القرآنَ فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنّى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه. ثم رُفعتُ إلى مقام فوقه[٣] فكنتُ أتلوه كأنّى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ. ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآنَ أسمعُه من المتكلِّم عزّ من قائل، فعندها وجدتُ له نعيمًا ولذّة لا أصبر عنها.

وقال عثمان رضى الله عنه أو حذيفة: لو طَهُرت القلوبُ لم تَشبع من تلاوةِ القرآن.

وقال ثابت البنانى: كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنة، وتنعَّمتُ به عشرين سنة.

وقال بعضُ علمائنا: لكل آيةٍ ستون ألفَ فَهْمٍ، وما بقى من فهمها أكثر.

وعن على رضى الله عنه: لو شئتُ لأوقرت سبعين بعيرًا من تفسيرِ فاتحة الكتاب[٤].

---

(١) فى (ك): «يرجو للخالق».

(٢) فى (ك): «أشهد».

(٣) ليس هناك مقام لمخلوق أعلى من مقام رسول الله ﷺ، ولعله يقصد الترتيب الزمانى فى نزول القرآن.

(٤) الخبر فى الإتحاف ٤/ ٥١١، ونقل تفسيرًا له، فراجعه ثَمَّ.

وعن أبى سليمان الدّارانى: إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، وذكر خمسَ ليال، ولولا أنّى أقطع الفكرَ فيها لما جاوزتُها إلى غيرها.

ورُوينا عن بعض السّلف: أنّه بقى فى سورة هود ستةَ أشهر يكررها، ولا يفرغ منها.

وحُدثنا عن بعض العارفين قال: لى فى كل جمعةٍ ختمةٌ، وفى كل شهرٍ ختمة، وفى كل سنةٍ ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد. يعنى ختمةَ الفَهْمِ والمشاهدة. وكان هذا يقول: أقمتُ نفسى فى العبودية مقام الأُجَرَاءِ، فأنا أعمل مياوَمَةً، ومجامَعَةً، ومشاهَرَةً، ومسانهةً[١].

وإنّما حجب [الله] الخلقَ عن فهم كنه الكلام، ومعرفة كلية المراد[٢]؛ لأنّه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته. وإنّما أعطاهم من معرفةِ الكلام بقدر ما أعطاهم من معرفة المتكلّم، إذ بمعانى كلامه تُعرف معانى صفاته وأفعاله وأحكامه؛ لأنّ معانى كلامه عين معانى أوصافه وأخلاقه؛ فلذلك جاء فيه السّهل اللطيف، والشديد العسُوف[٣]، والمرجو والمخوف؛ لأنّ من أوصافه الرحمةَ واللطف والانتقام والبطش. فلمّا لم يصلح أن يعرفوه كعلمِه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنهَ كلامه إلا هو، كما لا يعرف[٤] كنه صفاتِه إلا هو.

فأعلمُ الخلقِ لمعانى كلامه أعرفهم لمعانى الصفات[٥]. وأعرفُ العباد بمعانى الأوصاف والأخلاق وغوامض الأحكام أعرفهم بسرائر الخطاب، ووجه الحروف، ومعانى باطن الكلام، وأحقهم بذلك أخشاهم له، وأخشاهم له أقربهم منه،

---

(١) شرح الزبيدى هذا الخبر فقال: «الأجراء جمع أجير، وهو من يستعمل نفسه بالأجرة. ومياومة: وهى معاملة يوم بيوم، وهى لغة العامة. ومجامعة: وهى معاملة الجمعة إلى الجمعة، ولم يسمع استعماله عن العرب. ومشاهرة: من الشهر إلى الشهر. ومسانهة: من السنة إلى السنة» اهـ ملخصًا.

(٢) فى (ط): «ومعرفة سرّ المراد» وأثبت ما فى (ك).

(٣) الشديدُ العُسُوف: يقصد البعيد المعانى، والذى يحتاج إلى تأويل لفهمه.

(٤) فى (ط): «هو، ويعرف» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ك): «فأعلم الخلق بمعانى كلامه أعرفهم بمعانى الصفات».

وأقربهم منه مَنْ خصّه بأثرته وشمله بعنايته. فقد جاء فى الخبر: «أحسنُ الناس صوتًا بالقرآن مَن إذا قرأ رأيتَ أنّه يخشى الله». ولا يخشاه حتى يعرفه، ولا يعرفه حتى يعامله، ولا يعامله حتى يقربه، ولا يقربه حتى يُعنى به وينظر إليه؛ فعندها يعرف سرّ الخطاب، ويطلع على باطن أصل المراد، وفهم الكتاب[١].

فإذا سجد العبدُ سجودَ القرآنِ، فَلْيدعُ فى سجدته بمعانى الآية من الخير، وليستعذ من معانى شرّها، فإن ذلك فعل العلماء بالقرآن، والله يحب ذلك، ولتلك المعانى أسجدهم له. مثل أن يقرأ قوله عزّ وجل: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة:١٥]، فيقول: اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك، المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، أو على أوليائك. ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]، فليقل: اللّهم اجعلنى من الباكين إليك، الخاشعين لك. وعلى هذه المعانى ونحوها[٢].

وليكن القرآن هو علمه وعمله، وذكره ودعاؤه، وهمّه وشغله، فعنه يُسأل، وعليه يُثاب، ومقامُه منه، وذكره فيه، وأحواله فيه، مجموعٌ له ذلك كلّه فيه. فبكلامه عرفه العارفون، وبمخاطبته شهد أوصافه الموقنون، فعلومهم من كلامه[٣]، ومواجيدهم من علومهم، ومشاهدتهم من معانى أوصافه، وكلامهم عن مُشاهدتهم؛ لأنّ ضروب الكلام عن الله هى معانى الصفات[٤]، فمنه كلام راضٍ ومنه كلام غضبان، ومنه كلام مُنْعِم، وكلام مُنتقم، ومنه كلامُ جبّار متكبّر،

---

(١) فى (ط): «ويطلع على باطن الكتاب» وأثبت ما فى (ك)، وفى الإتحاف كلام جيد ومفيد فى حظ التالى من القرآن ومعرفة صفات الله تعالى، فراجعه ثم: ٤/٥٠٨.

(٢) عقد الحكيم الترمذى فصلاً جيدًا فى سجدات القرآن، وما لكل منها من الأدعية الخاصة، لكنه سقط من النسخة المطبوعة التى بيدى، وهو ثابت فيما نقله عنه الزبيدى فى الإتحاف ٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣. فهذا مما يستدرك على مطبوعة «نوادر الأصول».

(٣) فى (ك): «من كلامهم».

(٤) فى (ك): «لأن ضروب الكلام هو عن الله تعالى معانى الصفات».

وحنّان [عطوف][1] متعطّف.

فإذا كان العبد من أهل العلم بالله والفهمِ عنه، والسّمعِ من الله عزّ وجلّ والمشاهدةِ له، شهد ما غاب عن غيره، وأبصر ما عمى عنه سواه. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] معناه فى الفهم: اعبروا إلىّ فقد أبصرتم. و«التاء» قد تكون بمعنى التفعيل[2]، تدخل للتحقيق والوصول[3] بالوصف والمبالغة فى الفعل، فلما أعطاهم الأيدى والأبصار عَبَرُوا بقلوبهم[4] إلى ما أبصروا، ففرّوا إلى الله عزّ وجلّ من الخلق حين ذكَرُوه بما خلق، فخرجوا على[5] معيار حسن الابتلاء، ولم ينقصهم البلاء شيئًا، فكانوا كما أخبر والذى[6] أمر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ [من الأزواج][7]، ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥١] فكانوا هم الموحدين المخلصين له، وكان هو المنفردَ المستخلصَ لهم. ثم جاوزوا التذكرةَ بالأشياء[8] إليه، فذكروه عنده به، فحينئذ هربوا إليه منه حين هلّلوه به، فلم يتألّهوا إلى ما سواه، كما لم يعبدوا إلا إيّاه، وكذلك رأيتُها فى مصحف عبد الله: «فَفِرُّوا إلى اللهِ منه إنّى لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين».

وفى الخبر عن ابن مسعود، وبعضُ الرواةِ يرفعُه، وقد رويناه مسندًا من طريقٍ: «إنَّ للقُرآنِ ظَهْرًا وبَطْنًا وحدًا ومُطَّلعًا». فنقول: فظاهره لأهل العربية، وباطنه لأهل اليقين، وحدُّه لأهل الظاهر، ومطّلعه لأهل الإشراف، وهم خصوص

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «فالتاء قد تكون بمعنى تاء التفعل» وأثبت ما فى (ك).

(٣) ليست فى (ك).

(٤) فى (ط): «بقواهم» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ك): «عن».

(٦) فى (ط): «كما أخبروا كالذى» وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.

(٧) ساقطة من (ط).

(٨) كذا فى المطبوعة والمخطوطة، ولعلها «بالانقياد إليه».

العارفين من المحبين والخائفين، اطلعوا على لطف المطّلع، بعد أن خافوا هول المطْلَع، فأُودعوا السرّ عند مقام أمين، وأُوقفوا على الخبر فى حال مكين، فكانوا لديه مقرَّبين، إذ كانوا به شاهدين[١].

وقال النبى ﷺ: «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب». فمن حضَر شهد، ومن شهد وجد، ومن وجد وحّد، ومن وحّد عزّز، ومن غاب عمِى، ومن عمِى فُقد، ومن فُقد نَسى، ومن نَسى فقد نُسى، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:١٢٦] أى تركتها فلم تعبأ بها، ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظَر إليك برحمة، ولا تُكلَّم بلطف، ولا تُزلف بقُرب[٢].

❊ ❊ ❊

(١) بعض هذه الجمل السابقة تكرر فى المطبوعة قبل خبر ابن مسعود، وليس كذلك فى (ك).
(٢) هذه الفقرة برمتها ليست فى (ك).